المعالم الأثرية للحضارة الإسلامية في سورية

تأليف :

الدكتور غزوان مصطفى ياغي

منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ 1432هـ/2011م

المحتوى

المحتوى 5

تقديم 11

مقدمة : سورية في العصر الإسلامي 13

تمهيد : الأقسام الرئيسة للمعالم الأثرية للحضارة الإسلامية في سورية ... 25

الباب الأول : العمائر الدينية 31

ـ أهمية العمائر الدينية وأنواعها في سورية 33

أولاً : المساجد 34

ـ أصلها وتطور عمارتها 34

ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 37

1. الجامع العمري في بصرى 37

2. الجامع الكبير الأعلى في حماه 39

3. الجامع الأموي الكبير في دمشق 41

4. الجامع الكبير في الرَّقة 45

5. جامع الأطروش في حلب 46

ثانياً : المدارس 50

ـ أصلها وتطور عمارتها 50

ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 53

1. المدرسة النُّورية الكبرى في دمشق 53

2. المدرسة المارداني‍ة في دمشق 55

3. المدرسة العادلية الكبرى في دمشق 56

4. المدرسة الفردوسية في حلب 59
5. المدرسة الخسروية في حلب 61
ثالثاً : الخانقاوات 64
ـ أصلها وتطور عمارتها 64
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 65
* الخانقاه الجقمقية 65
رابعاً : الأربطة 68
ـ أصلها وتطوُّر عمارتها 68
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 69
1. رباط البيانيّة في دمشق 69
2. الرباط النّاصري في حلب 70
خامساً : الرُوايا 73
ـ أصلها وتطور عمارتها 73
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 74
1. زاوية الشّيخ رسلان في دمشق 74
2. زاوية الشّيخ حيدر في حلب 75
3. الزاويةالكيلانية في حماه 78
سادساً : التكايا 80
ـ أصلها وتطور عمارتها 80
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 81
1. التّكية السّليمانية في دمشق 81
2. التّكية المولوية في حلب 83
سابعاً : التُرب والقباب 88
ـ أصلها وتطور عمارتها 88
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 90
1. ضريح بلال الحبشي في دمشق 90

2. مشهد الأئمة في مدينة السّلمية 92
3. تربة آرق السّلحدار بدمشق 96

الباب الثاني : العمائر المدنية 99
ـ أهمية العمائر المدنية وأنواعهافي سورية 101

أولاً : العمائر السّكنية 102
ـ أصلها وتطور عمارتها 102
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 106
1. قصر الحير الشّرقي في حمص 106
2. القصور العباسيّة في الرّقة 108
3. قصر أسعد باشا العظم في دمشق 110
4. بيت خالد العظم في دمشق 112
5. مكتب عنبر في دمشق 113
6. بيت آق باش في حلب 115
7. بيت غزالة في حلب 117

ثانياً : العمائر التجارية 121
ـ مقدمة عن أهميتها وأنواعها في سورية 121
ـ الأسواق 121
ـ أصلها وتطور عمارتها 121
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 123
1. أسواق مدينة دمشق 123
2. أسوق مدينة حلب 126
ـ الخانات 128
ـ أصلها وتطور عمارتها 128
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 130
1. خان رستم باشا في حماه 131

2. خان الوزير في حلب 132
3. خان أسعد باشا في دمشق 134
ثالثاً : عمائر الرّعاية الاجتماعية 136
ـ مقدمة عن أهميتها وأنواعها في سورية 136
ـ الحمامات 137
ـ أصلها وتطور عمارتها 137
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 143
1. الحمام الأثري في السّلمية 144
2. الحمام النّاصري في حلب 146
3. حمام التيروزي في دمشق 148
ـ البيمارستانات 150
ـ أصلها وتطوّر عمارتها 150
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 152
1. البيمارستان النّوري في دمشق 155
2. البيمارستان الأراغوني في حلب 157
ـ الأسبلة 157
ـ أصلها وتطور عمارتها 160
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 161
ـ في دمشق : سبيل مكتب عنبر(النرجس)، سبيل تحت القناطر، سبيل الورد، سبيل أبو الشّامات 162
ـ في حلب : سبيل الأمير أحمد بك، سبيل جامع اليشبكية 163
ـ في حماه : سبيل الجامع النوري، سبيل العمري، سبيل باب الجسر، سبيلا شارع أبي الفداء 165
ـ الطواحين 165
ـ أصلها وتطور عمارتها 167
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 167
* طاحونة الزّعيم 167

ـ السّواقي 169
ـ أصلها وتطور عمارتها 169
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 171
* ساقية الشيخ محي الدّين 171
ـ النّواعير 173
ـ أصلها وتطور عمارتها 173
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 175
ـ نواعير مدينة حماه : ناعورة الكيلانية، ناعورة المحمديّة،
الناعورتان البشريتان، الناعورتان العثمانيتان، ناعورة المأمونية،
ناعورة الجعبرية 175
الباب الثالث : العمائر العسكرية 179
ـ أهمية العمائر العسكرية وأنواعها في سورية 181
أولاً : الأسوار والبوابات 182
ـ أصلها وتطور عمارتها 182
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 183
1. أسوار وأبواب مدينة دمشق 184
2. أسوار وأبواب مدينة حلب 192
ثانياً : القلاع 196
ـ أصلها وتطور عمارتها 196
ـ أهم أمثلتها الباقية في سورية 201
1. قلعة دمشق 201
2. قلعة حلب 205
3. قلعة صلاح الدين 208
4. قلعة الحصن 209
5. قلعة المضيق 211
الخاتمة 212
المصادر والمراجع 213
الصور والأشكال 222

تقديم

إيمانًا من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ بمكانة الحضارة والتراث الثقافي الإسلامي في الجمهورية العربية السورية، وانطلاقًا من ميثاقها الذي يحرص على العناية بالتراث الثقافي في الدول الأعضاء، والتزامًا بمسؤولياتها في الوقوف إلى جانبها في دفاعها عن حقوقها وسيادتها، وسلامة أراضيها، وحماية تراثها الثقافي والحضاري، وقيامًا بواجب المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في صيانة الشخصية الإسلامية في جوانبها التراثية والثقافية والحضارية، وفي إطار خطة عملها للأعوام 2010-2012م، الهادفة إلى المحافظة على التراث الثقافي والحضاري في الدول الأعضاء، الذي يتميز بخصوصيات فنية معمارية متميزة، وبعناصر جمالية وحضارية تجعله يحتل مكانة عالية بين نظائره في العالم، فضلاً عن كونه عنصراً من عناصر الذاتية الثقافية للشعوب الإسلامية، فقد أولت اهتمامها للمحافظة على التراث الحضاري في الدول الأعضاء في خططها المتوالية، وحرصت على إصدار عدد من البحوث والدراسات ذات الصلة، بهدف إيلاء المزيد من العناية بخصائص الآثار الإسلامية، وعناصرها المعمارية، وقيمها الجمالية، وتأهيل العاملين في مجال حمايتها والحفاظ عليها، وكذلك في مجال الترميم الدقيق والاستكشاف والبحث عن الآثار والحفريات والتسجيل الأثري، وعقد لقاءات للتعريف بفنون العمارة الإسلامية، وإعداد الدراسات والبحوث بشأنها، وتخصيص جوائز للمبدعين في مجال فنون العمارة الإسلامية.

وفي هذا الإطار عملت الإيسيسكو من خلال خططها السابقة، على الاهتمام بالتراث المعماري الإسلامي المادي باعتباره من مقومات الحضارة الإسلامية، والمتمثل أساساً في المواقع الأثرية توثيقاً وصيانةً وترميماً وتدريباً للموارد البشرية المتخصصة، وفي المتاحف وموجوداتها، من خلال إدخال عناصر التراث الإسلامي في عدد منها، والتدريب على إدارتها بالوسائل المعلوماتية، والعمل على استرجاع الممتلكات الثقافية المسلوبة منها، وفي صناعة المخطوطات في جوانبها المادية المتعلقة بالصيانة والترميم وتدريب الأطر المتخصصة على استخدام التقنيات الحديثة في هذا المجال.

ولكل هذه الاعتبارات، أعدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بالتنسيق مع اللجنة الوطنية السورية للتربية والثقافة والعلوم بواسطة الباحث الدكتور غزوان ياغي، مدير آثار مدينة دمشق القديمة، التابعة للمديرية العامة للآثار والمتاحف في وزارة الثقافة، دراسة وثائقية حول المعالم الأثرية للحضارة الإسلامية في هذا البلد العريق في أمجاده الحضارية ومآثره التاريخية، يقدم من خلالها رؤية منهجية موثقة لأهم معالم التراث المعماري الإسلامي في سورية، مستنداً في ذلك إلى عدد كبير من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، والصور والأشكال الموضحة للمتن، بالإضافة إلى الدراسة الميدانية لأهم معالم التراث المعماري الإسلامي في الجمهورية العربية السورية، وتقديم هذه المادة الأثرية بأسلوب علمي شائق، ومنهج توثيقي رائق.

ونسأل الله أن يكون هذا الكتاب إضافة مفيدة، وأن ينفع به الطلاب والمثقفين وشداة المعرفة بهذا الجانب الرائع من الحضارة الإسلامية المبدعة.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم والثقافة

المقدمة

سورية في العصر الإسلامي

يحتل القطر العربي السوري جزءاً كبيراً من الجبهة الغربية للبحر الأبيض المتوسط[1] [الشكل رقم 1]، حيث شكلت أرضها صلة الوصل بين قارات العالم القديم، وتمتلك الأراضي السورية[2] إرثاً معمارياً غنياً ابتدأ تكوّنه منذ العصور القديمة، حيث كانت الأراضي السورية مهد للحضارات وملتقى للثقافات فقدمت للعالم القرى الزراعية الأولى والأبجدية الأولى والمدنية الأولى [الشكل رقم 2] وعلى أرضها امتزجت العديد من الثقافات والديانات، فهي مهد المسيحية وقاعدة الإسلام وأهلها في رباطٍ ليوم الدين.

تطور فنُّ البناء والعمارة في سورية تطوراً سريعاً ساير ركب الحضارة الفتية وتطور معها مما أنتج تعدداً في طرزه وأساليبه تبعاً لتعدد وتغير وظائف الأبنية والاحتياجات التي تنوعت عبر التاريخ[3].

---

(1) تبلغ مساحة الجمهورية العربية السورية حوالي 185000كم^2، ويحدها من الشمال تركيا، ومن الغرب البحر المتوسط، ولبنان وفلسطين، وجنوباً الأردن، كما يحدها العراق من جهة الشرق. ويبلغ عدد سكانها : 18,448,752 (حسب إحصائيات عام 2005). تنقسم سورية إدارياً إلى 14 محافظة، يمكن تصنيفها في ثلاث مناطق : المنطقة الجنوبية وتضم كل من المحافظات : دمشق، ريف دمشق، السويداء، درعا، القنيطرة. والمنطقة الوسطى والغربية وتضم كل من المحافظات: حمص، حماه، طرطوس، اللاذقية، ادلب. والمنطقة الشمالية الشرقية وتضم كل من المحافظات : حلب، الرقة، دير الزور، الحسكة.

(2) حملت الأرض السورية أسماء عديدة أقدمها اسم (عمورو) الذي أطلقه الأكاديون على إخوانهم ممن نزحوا باتجاه الغرب ويعني سكان الغرب، فعرفت باسم (بلاد عمورو) وسمي البحر الأبيض المتوسط آنذاك باسم بحر عمورو العظيم. وفي القرن الثاني قبل الميلاد ومع قدوم أقوام جديدة للمنطقة تبدل الاسم ليصبح (بلاد آرام) هذا الاسم الذي عرف منذ عهد الملك الآشوري نارام سين 2250ق.م، وتعني الأراضي العالية المرتفعة، ولم تلبث تلك الأقوام الجديدة أن صار لها كيانها المميز ولغتها التي حملت اسمها (الآرامية)، وتمكنت من بناء كيانها السياسي منذ منتصف الألف الثاني ق.م والذي استمر حتى 720ق.م حين سقط على يد الآشوريون الذين سقطت دولتهم بُعيد ذلك، ولم يلبث الفرس الأخمينيون أن ضموا الأراضي التي شغلها الآراميون قبلهم وأطلقوا عليها اسماً جديداً هو (أسورا عربايا) الذي لم يلبث أن انتقل للإغريق ثم للهلنستين ومن بعدهم الرومان والبيزنطيين وعند الفتح الإسلامي كانت المنطقة تعرف باسم (سورية).

أما اسم (الشام) فقد كان العرب في الجزيرة العربية قد أطلقوه على جميع أجزاء المنطقة الشمالية من البلاد العربية، وبنفس الوقت كانوا يطلقون اسم (اليمن) على كل المناطق الجنوبية ، وصارت بلاد الشام عند الجغرافيين العرب تعني فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين وجبال الشراة، ثم تكثف هذا الاسم ليطلق الآن على مدينة دمشق لوحدها، ويظل اسم سورية الأكثر دلالة من الناحية السياسية والاقتصادية.

للاستزادة انظر : عفيف بهنسي، مصدر اسم سورية والأسماء الأخرى القديمة، مقال منشورة في مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد 32، 1982، ص 105-111.

(3) Ali al- Qayyem, Syria amillion year culture, translated by m. allam khoudr, minister of culture, Damascus, p. 1-41 .

ومع بداية الفتوحات الإسلامية كانت سورية الهدف الأول للجيوش الإسلامية التي أرسلها الخليفة الأول أبو بكر الصديق، والتي وصلت إلى جنوب سورية عام 13هـ/634م، بهدف تحرير العرب والأرض العربية من السيطرة البيزنطية، ونشر الإسلام فيها، وكانت أول مدينة كبيرة تسقط بيد المسلمين هي بصرى 13هـ/634م، ثم دمشق لأول مرة بيد خالد بن الوليد 14هـ/635م والتي انسحب منها في 15هـ/636م إثر ورود الأخبار عن وصول الإمبراطور هرقل إلى حمص وإرساله الجيوش البيزنطية والأرمينية والغسانية بقيادة القائد العام تيودوروس تريثوريوس إلى جنوب سورية، لخوض المعركة الفاصلة مع المسلمين. والتي وقعت على نهر اليرموك، بلغ عدد الجيش البيزنطي أضعاف جيش المسلمين، ومع ذلك كان نصر المسلمين في اليرموك حاسماً، مما دفع هرقل وبقايا جيشه إلى الهرب شمالاً تاركاً سورية لجيش الفاتحين الذين ذهبوا مباشرة لحصار دمشق للمرة الثانية والأخيرة. بحلول عام 17هـ/638 كان المسلمون قد فتحوا بقيادة خالد بن الوليد وعياض بن غنم شمال سورية والجزيرة، أما الساحل السوري فانتظر حتى عام19هـ/640م، لتصبح كامل سورية وبلاد الشام في يد المسلمين، منهيين بذلك الألفية الهلنستية في سورية وليبدأ عصر جديد.

العصر الأموي (41-132هـ/661-750م) : بعد الفتح عُيّن يزيد بن أبي سفيان والياً على الشام وعند وفاته خلفه أخوه معاوية وبقي فيها حوالي 20 سنة فجعل من دمشق قاعدة لعائلته (بني أمية)، ومركز قوته. وعند اغتيال الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب، استحوذ معاوية على الخلافة وجعل من دمشق عاصمته، مبتدأً العصر الأموي والذي بلغ أوج قوته وازدهاره أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد الذي توالت في عصره الفتوحات حتى وصلت الدولة الإسلامية في عهده إلى أقصى اتساع لها وقد امتدت من جنوب فرنسا إلى حدود الصين، وقد واكبت الفتوحات حركة عمرانية هائلة في شتى بقاع هذه الدولة التي استمرت حوالي 90 سنة، حيث أثمر الاستقرار السياسي والنمو الاقتصادي إضافة للرغبة الكبيرة من الخلفاء الأمويين في الإعمار والبناء والفنون ظهور تطور بارز في شخصية الفن الإسلامي وإنتاج نماذج معمارية أثّرت بكل ما أتى بعدها مثل الجامع الأموي في دمشق وقصورهم المنتشرة في البادية السورية، ولكن هذه الدولة سقطت تحت ضغط الدعوة العباسية وجيشها القادم من الشرق.

العصر العباسي (132-656هـ/750-1258م) : بعد إعلان قيام الدولة العباسية ومبايعة أبو العباس السّفاح كأول خليفة عباسي، أرسل الجيش لملاقاة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وقد حدثت المعركة الفاصلة على نهر الزاب، وكان النصر حليف

الجيش العباسي بقيادة عبد الله بن عليّ عمّ الخليفة السفاح والذي أصبح أول والي عباسي على الشام. وكانت أول نتائج قيام الدولة العباسية نقل عاصمة الخلافة من دمشق (قاعدة الأمويين) إلى الكوفة، الأمر الذي أثّر على مكانتها التاريخية فبعد أن كانت عاصمة العالم أصبحت تعاني الإهمال، ولكنها حافظت على مكانة تجارية عالية بسبب موقعها المميز، وانصبَّ اهتمام العباسين على منطقة الجزيرة السورية التي كانت قاعدة الحروب ضد البيزنطيين، فبنى المنصور مدينة الرافقة (الرقة) على غرار بغداد والتي أصبحت في زمن هارون الرَّشيد عاصمة الدّولة لمدة 12سنة ومال الخلفاء العباسيون للاعتماد على العنصر الفارسي في دولتهم مما ركز انتباههم على الولايات الشرقية فارس وخراسان، حيث زادت التأثيرات الفارسيّة والرّافدية على الفنون والعمارة العربية والإسلامية، فأخذ الفن اتجاهات مختلفة عن العصر السابق، وظهرت تلك المميزات الفنية الجديدة في مواد البناء وأنواع التخطيطات والعناصر المعمارية، حيث استخدم المسقط المربع للمباني وشاع استخدام الأواوين المعقودة والمغطاة بالقباب والأقبية إضافة للتجديد الذي أدخلوه في تخطيط المدن، حيث أسَّسوا عّدة مدن في العراق كبغداد وسامراء وفي سوريةكمدينة الرقة . وقد ألحقت الأراضي السورية خلال العصر العباسي بالعديد من الدويلات التي قامت تحت الولاية العباسية أو التي انفصلت عنها أو التي ناصبتها العداء.

الطولونيون (263-292هـ/877-905م) : بدا الاعتماد على العنصر التركي في الجيش والإدارة أيام الخليفة المعتصم بالله ليبلغ أقصى مداه أيام المتوكل (232-247هـ/847-861م)، حيث كان قادة الجيش وولاة الأقاليم من الترك، وقد بلغ بعضهم من القوة مثل أحمد بن طولون والي مصر حدّ رفضه دفع الخراج إلى الخليفة وإعلانه الاستقلال عن الخلافة بل وقام بضم معظم أراضي سورية في عام 264هـ/878م إلى الدولة الطولونية، إلا أن عمر دولته كان قصيراً حيث قام القرامطة بإنهاء السيطرة الطولونية على سورية 262هـ/905م.

وقام الطولونيون والعباسيون بتجريد حملات ضد القرامطة في دمشق حتى تم طردهم منها، وعادت دمشق إلى الحكم العباسي المباشر حتى عام 326هـ/938م عندما قام الإخشيد (محمد بن طغج بن جف) بإعلان دولته والتي ضمت سورية ومصر والتي استمرت حتى عام 358هـ/م969م، وقد كانت سورية في هذا الوقت مسرحاً تتنازعه ثلاث قوى : الحمدانيون في حلب والذين قاموا بالسيطرة على الشمال السوري والجزيرة. البيزنطيون الذين قام أباطرتهم نقفورس فوكس، وجون تزيميسكس بحملات

توغلت عميقاً في سورية، ليأخذوا أنطاكية بعد 300 سنة من تحريرها من قبل العرب المسلمين، وليصلوا إلى دمشق عام 360هـ/970م، أما القوة الثالثة فكانت القرامطة في الجنوب السوري، ولم ينتهِ ذلك حتى وصول الفاطميين من مصر.

الفاطميون (359-468هـ/969-1075م) : بعد سقوط أنطاكية، قدم الجيش الفاطمي من مصر لحماية دمشق وتحرير المناطق السورية المحتلة من قبل البيزنطيين، وفي عهد الحاكم بأمر الله امتدت السيطرة الفاطمية على معظم سورية وإلى أغلب أجزاء من العراق، وكانت دمشق أثناء ذلك عاصمة الفاطميين في الشام، وقد تميز هذا العهد بسرعة تغيير الحكام في سورية، ففي عهد الحاكم وخلال 9 سنوات فقط (392-401هـ/1002-1011م) غُيِّر الوالي 12 مرة، ولم يخلف الفاطميون آثاراً هامة على النّواحي الفنية والمعمارية والحضارية في سورية، التي عانت الأمرين بسبب الحروب الكثيرة والاضطرابات آنذاك، فقد كانت دمشق زمن السّيطرة الفاطمية مجرد قاعدة للحروب ضد البيزنطيين، وهذا ما دفع الخليفة الفاطمي لتعيين رَجُلِهِ القوي بدر الجمالي والياً على جنوبي سورية وفلسطين، وقد تميز حكمه بالقسوة تجاه أهالي دمشق الذين ثاروا عام 461هـ/1069م وقد احترقت نتيجة لذلك أجزاءً من الجامع الأموي وقد كان ذلك إيذاناً بانتهاء الحكم الفاطمي في سورية.

السّلاجقة (468-539هـ/1075-1145م) : كان وصول الجيش السّلجوقي بقيادة السّلطان ألب أرسلان لوقف زحف الإمبراطور البيزنطي أرمانوس على البلاد الإسلامية هو أول وصول للسّلاجقة إلى سورية، وقد حقق المسلمون انتصاراً ساحقاً في معركة ملاذكرد شمالي سورية عام (463هـ/1071م)، وفي نفس العام وصل أحد قادة جيش ألب أرسلان وهو القائد أتسز بن أوق إلى دمشق فأخذها من يد الفاطميين، وبدأ بتحصين المدينة وبناء قلعتها. كان نجاح أتسز بن أوق في دمشق (463-471هـ/1071-1078م) هو بداية السّيطرة السّلجوقية على سورية. حيث حاول أتسز مد سيطرته على كامل سورية فسار إلى حلب، وعند وصول الأخبار عن تجميع الجيش المصري عاد إلى دمشقَ للمحافظة عليها، وكان الملك المظفّر تتش بن ألب أرسلان قد استولى على الشّمال السّوري ومن ضمنه حلب فأرسل إليه أتسز طالباً العون وواضعاً نفسه في خدمته، وكان أول عمل يقوم به تتش عند وصوله لدمشق هو قتل أتسز بن أوق.

وبوصول تتش تمت السّيطرة السّلجوقية على كامل الشام، وعند وفاته عام 488هـ/1095م تمّ تقسيم سورية بين ولديه الأكبر رضوان في حلب (488-507هـ/1095-1113م)، والأصغر دقاق في دمشق (488-479هـ/1095-1104م)، التي حكمها بمساعدة

أتابكه طغتكين، وبعد وفاة دقاق حكم طغتكين باسم تتش الثاني ابن دقاق، وبعد وفاة الطفل انفرد طغتكين بالحكم وخاصة أنه كان قد تزوج أم دقاق صفوة الملك، ومؤسساً للأسرة البورية التي حكمت سورية لأكثر من سبعين عاماً (497-570هـ/1104-1174م). وجد طغتكين أن الصّليبيين والذين «أخذوا معظم سورية» قد صاروا على بعد 100كم فقط عن دمشق وأنهم باتوا يهددون ممتلكات دمشق في حوران والجولان، فاتفق مع أتابك الموصل شرف الدين مودود الذي كان أول من أعلن الجهاد ضد الصّليبيين، على المقاومة ولكن مودود اِغْتيل في الجامع الأموي قبل البدء في مشروعه الجهادي، وكانت علاقة طغتكين بحلب معقدة جداً فكل طرف يخشى الآخر وفي نفس الوقت يطمح لضم ممتلكاته. وكان واضحاً للصليبيين أن دمشق هي مفتاح إقامتهم الطويلة في الشرق، لذلك حاولوا أخذها، فلاقاهم طغتكين في مرج الصفر عام 520هـ/1126م، حيث حقق الصليبيون انتصاراً باهتاً لكنهم عجزوا عن التقدم. كانت فترة حكم طغتكين (497-522هـ/1104-1128م) فترة ازدهار لدمشق التي كان يتمتع فيها بمحبة الناس، لكنْ عند وفاته كانت الكفّة قد رجحت لحلب مع وصول عماد الدين زنكي إليها عام 522هـ/1128م. الذي كان أول شي عمله بعد سيطرته على حلب هو أخذ التفويض من خليفة بغداد لضم دمشق التي انتقل الحكم فيها إلى ابن طغتكين تاج الدين بوري (522-526هـ/1128-1132م)، وقد كانت السلطة الفعلية بيد وكيله معين الدين أنر.

كانت دمشق خلالها ترزح تحت ضغوط من اتجاهين : عماد الدين في حلب والصليبيين الذين قدموا لمحاصرتها عام 523هـ/ 1129م، لكنهم تفاجئوا بهجوم بوري من خارج المدينة مما أدى لانسحابهم عنها، بعد مقتل بوري عام 526هـ/1132م، انتقل الحكم في دمشق إلى ابنه شمس الدين إسماعيل (1132-1135)، ثم إلى أخيه شهاب الدين محمود (526-529هـ/1132-1135م)، اللذان كانا واقعين تحت سيطرة والدتهما صفوة الملك زمرد، بعد مقتل محمود تحول الحكم إلى الأتابك معين الدين أنر، وأخيه مجير الدّين أمق، وقد قُتل عماد الدين الزنكي عام 533هـ/1139م، أثناء ذلك خلال حملاته لتوحيد المناطق السورية في حروبه ضد الصليبيين فأقام ابنه نور الدين محمود مكانه ليكمل عمله وليأخذ بمساعدة قادته الأيوبيين دمشق عام 539هـ/1154م لتأخذ المكانة التي تستحقها ثانية بعد ثلاثة قرون من الإهمال.

نور الدين الزّنكي (539-569هـ/1154-1174م) : مع وصول نور الدين استعادت دمشق مكانتها، وقد بدأ فيها عملية بنيان لم تشهدها المدينة منذ العصر الأموي، وكان أول

أعماله إبطال دفع الجزية التي كانت تدفعها دمشق لمملكة القدس الصليبية، ثم جهز الحملات إلى شمالي سورية، وحصّن المدن التي كانت بيد المسلمين وخاصة دمشق وحلب وبصرى ثم بدأ التفكير بمصر لإيمانه أن النصر الحاسم على الفرنج لا يمكن أن يتم إلا بوحدة مصر والشام، وقد أتته الفرصة عند التجاء المصريين إليه طالبين العون منه ضد الصليبيين فأرسل أحد قادته وهو أسد الدين شيركوه بن أيوب ومعه ابن أخيه صلاح الدين لمساعدة المصريين (559هـ/1164م) وفي نفس العام قام نورالدين بتحرير بانياس من الصليبيين، وقد أصبح شيركوه في مصر وزيراً للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وعند وفاته أصبح صلاح الدين وزيراً مكانه، الذي لم يلبث قبيل وفاة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطية أن أعلن إسقاط الخلافة الفاطمية (567هـ/1171م) وبدأ يثبت لنفسه حكم مصر حين توفي الملك العادل نور الدين في نفس العام فاسحاً المجال لقيام عصر جديد هو العصر الأيوبي الذي ترك تأثيراً حضارياً بالغاً تجلى في المباني المعمارية العديدة التي خلفها في المدن السورية "مدارس مساجد بيمارستانات..." والتي حملت مميزات الفن السّلجوقي الخالص الذي امتزج مع التقاليد المحلية لينتج خصائص عامة تجلت بالأواوين التي تفتح على الفناء الذي تتوسطه بركةً مستطيلةً مضلعةً، والقباب التي صارت محمولة على حنايا ركنية مقرنصة، واستعمال خط النسخ الذي ابتدأ ظهوره منذ ذلك التاريخ.

الأيوبيون (570-658هـ/1174-1260م) : عند وفاة نور الدين انتقل الحكم إلى ابنه الصالح إسماعيل وكان طفل ابن 11 سنة، فترك الشام لصلاح الدين وانتقل هو إلى حلب، وعند وفاته توحدت مصر والشام تحت حكم صلاح الدين، وبعد عام 577هـ/1182م اتخذ من دمشق مقراً له ولم يعد إلى القاهرة ثانية، وقد قضى فترة حكمة في قتال الصليبيين، حتى كان النصر الحاسم في معركة حطين عام 529هـ/1187م، ذلك النصر الذي كان مقدمة تحرير القدس، وبعد تحرير القدس وفي عام 529هـ/1193م توفي في دمشق ودُفِن فيها فاقتسم أولاده مملكته فأخذ ابنه الأكبر الأفضل علي دمشق وفلسطين والساحل اللبناني ليحقق حلم والده بتحرير الأراضي العربية من الصليبيين، أما الظاهر غازي فأخذ حلب، والعزيز عثمان القاهرة، أما الجزيرة فكانت لعمهم العادل أبي بكر. نتيجة لوقوع الخلاف بين أولاد صلاح الدين تمدد الصليبيون في المنطقة مما حدا بالعادل أبي بكر إزاحة أبناء أخيه والحكم لوحده كسلطان للدولة الأيوبية، لينتقل الحكم بعده إلى أولاده والذين لم يكونوا أفضل حالاً من أبناء عمهم فاستمر الخلاف والتقاتل بين أمراء الدولة الأيوبية حتى استعاد الصليبيون معظم الأراضي التي حررت من قبل صلاح الدين حتى وصل جيش مملكة القدس إلى دمشق خمس مرات بين عامي (530-597هـ/1194-1201م)، وأخيراً سقطت دولة بني أيوب بوصول جيش المغول بقيادة

هولاكو إلى دمشق عام 658هـ/1260م، وقد استمرت الحركة العمرانية في هذا العصر بقوة غير مسبوقة وخاصة في توسيع وتجديد أسوارها وتشييد العديد من القلاع وتزويد الطرقات العامّة بالخانات وبناء المساجد الخانقاوات والأضرحة ذات القباب الضخمة والحمامات والقيساريات التي ما زلنا نراها في المدن السورية والتي تميزت عموماً بالمتانة والقوة وإتقان التخطيط والبناء والاعتماد على الحجر الجيد النحت في البناء.

العصر المملوكي : الذي يقسم لفترتين هما :

المملوكي البحري (658-784هـ/1260-1382م) : بوصول الظاهر بيبرس إلى دمشق ابتدأ حكم المماليك البحرية، وقد أحدث فيها عام 659هـ/1261م منصبان هما نائب السلطنة في دمشق، ونائبٌ للقلعة، كانت القاهرة مقر حكمه بينما كانت دمشق قاعدة حملاته ضد الفرنج، بين عامي 674هـ/1266م و669هـ/1271م فأخذ قيسارية، يافا، أرسوف، كما حاصر إنطاكية، ثم قلعة الحصن. وقد بنى خلال فترة حكمه دولةً تعادل دولة صلاح الدين، وأقام خليفة عباسي في القاهرة.

حارب الظاهر بيبرس الصليبيين في 38 حملة، قاد بنفسه 15 منها، وقد أحدث ثغرات في الجدار الصليبي الذي استمر تداعيه مع حملات السلطان قلاوون حتى تمكن ابنه الملك الأشرف خليل من إنهاء الوجود الصليبي نهائياً في الساحل السوري في 3 حزيران 690هـ/1291م.

وقد بلغت دمشق عصرها الذهبي في ظل حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون ونوابه الكبار عليها مثل سيف الدين تنكز الحسامي، بعد الناصر محمد توالى على السلطنة أولاده والذين لم يكونوا أهلاً للسلطنة فتسلط أمراؤهم عليهم حتى انتقل الحكم إلى فئة أخرى من المماليك هم المماليك الجراكسة أو البرجية.

المملوكي البرجي (784-922هـ/1382-1516م) : ابتدأ حكمهم مع السلطان برقوق وكان نائبه على دمشق سيف الدين يلبغا اليحياوي، وقد تعرضت الشام في هذا العهد إلى اجتياح التتر بقيادة تيمورلنك آخر الغزاة من وسط آسيا، وقد حاصر دمشق وأخذها عام 804هـ/ 1401م وارتكب مذبحة بشعة فيها مازال الناس يذكرونها بمرارة، وكان آخر نواب المماليك البرجية في دمشق سيباي والذي قتل مع السلطان قانصوة الغوري في معركة مرج دابق 922هـ/1516م، وقد شهد العصر المملوكي ازدهاراً حضارياً مميزاً، حيث ارتقت الفنون والآداب والعلوم، كما بلغ من العمارة بهذا العصر قمة تطوره حيث بنيت الجوامع والمدارس والترب والحمامات والأسواق والخانات والعصور التي تميزت بالضخامة والتراث المعماري الزخرفي إضافة للحرص على مظاهر القوة

والضخامة ومراعاة النسب الدقيقة في التخطيطات وكافة العناصر المعمارية والزخرفية فجاءت المباني المملوكية متشابهة دون أن يلغى تأثير التيارات المحلية بكل مدينة.

العصر العثماني (922-1336هـ/1516-1918م) : في غمرة الصراع على سورية بين العثمانيين والصفويين، قام السلطان سليم الأول بتحركه جنوبا ليقابل المماليك في مرج دابق وينتصر عليهم منهياً الحكم المملوكي في المنطقة، وكان أول والي عثماني على سورية نفس الوالي المملوكي السابق لحمص جانبردي الغزالي، الذي أعلن ثورته ضد العثمانيين فور وفاة السلطان سليم عام 925هـ/1519م، ولكنه انكسر أمام العثمانيين في معركة برزة قرب دمشق عام 927هـ/1521م. وبعد ثورة الغزالي أدرك العثمانيون خطورة الوضع في سورية فأرسوا فيها حاكماً عسكرياً وأرسلوا إليها قوى من الانكشارية لتمكن الوالي من حفظ الأمن ووقف تحركات البدو بالإضافة إلى تأمين قوافل الحجيج والتي كانت في طليعة مهام والي دمشق، في عام 933هـ/ 1527م جزّء العثمانيون سورية إلى ولايات منفصلة (دمشق، حمص، حماه، حلب) تضم كل ولاية عدة سناجق، كما بنوا حصوناً جديدة لحماية الطرق مثل القنيطرة في الجولان.

تميز الحكم العثماني بتغير مستمر للولاة في الشام فقد تم تغير والي دمشق 148 مرة مابين عامي 922-1170هـ/1516-1757 لم يقضِ معظمهم أكثر من سنتين في الحكم، ومع ذلك حظيت دمشق بعدد من الولاة المهمين والذين تركوا آثارهم فيها مثل سنان باشا ودرويش باشا ومصطفى لالا باشا وبلغت دمشق ذروة الأمن والازدهار مع حكم آل العظم (1137-1222هـ/1725-1807م)، إلا أن الأوضاع السيئة التي سادت سورية مع وصول الاتحاديين إلى الحكم في تركية ومحاولتهم تتريك شعوب الإمبراطورية، والقمع الذي شاب حكم آخر ولاة سورية جمال باشا السفاح، جعل الشعب العربي في سورية ينضم للثورة العربية التي أعلنها شريف الحجاز منهياً أربعة قرون من الحكم العثماني، وقد أدخل العثمانيون لسورية أول مرة طرازاً معمارياً تجلى في المظهر العام للمبنى وفي التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية، فساد استخدم القباب في التغطيات وخاصة في المباني الدينية التي عرفت ظهور نظام التكايا كما سنرى لاحقاً لتلعب دور الجامع والمدرسة، وتميزت المآذن بهذا العصر برشاقتها وطولها وبقلنسوتها المخروطية، وقد لعب الموقع الجغرافي والتجاري دوراً بنشاط حركة بناء الأسواق والخانات كما لعب طريق الحج دوراً في تعزيز الوجه الحضاري في سورية آنذاك، كما يعتبر استخدام ألواح القاشاني في التكسيات ميزة ارتبطت بهذا العصر الذي شهد في نهايته بداية تدهور الفن الإسلامي تحت تأثير التيارات الفنية الأوربية "تيار الباروك والركوك".

الحكم العربي (1336-1337هـ/1918-1920م) : في 1 تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1918 دخلت القوات العربية المتحالفة مع قوات الحلفاء (فرنسة وانكلترة) دمشق معلنة قيام الإدارة العربية لسورية وفيصل بن الشريف علي ملكاً عليها والذي وصل بعد يومين إليها بالقطار من درعا بعد استكمال تحريرها من الأتراك، وبعد عام كانت الإدارة العربية قد شملت كامل الأراضي السورية، ولكن ذلك لم يكن ليستمر ذلك أن فرنسة وانكلترة كانت قد تواطأتا على اقتسام الأراضي العربية في ما عرف بمعاهدة سايكس ـ بيكو.

الاحتلال الفرنسي (1337-1365هـ/1920-1946م) : أعلن الانتداب الفرنسي على سورية إثر دخول جيش الجنرال غورو دمشق عام 1920، والذي تعرض منذ أول يوم للمقاومة التي بدأت بموقعة ميسلون التي قادها الشهيد يوسف العظمة، والتي بلغت ذروتها مع ثورة 1343هـ/1925م والتي قامت فرنسة خلالها بقصف مدينة دمشق بالمدفعية الأمر الذي نتج عنه حريق القسم الغربي من دمشق القديمة (حي سيدي عامود) الذي بات يعرف منذ ذلك بحي الحريقة. ثم قامت فرنسة بتقسيم سورية إلى دويلات منفصلة الأمر الذي رفضه الشعب السوري والذي أعلن ثورات في كافة المناطق كثورة الشيخ صالح العلي وثورة إبراهيم هنانو وحسن الخراط الذين وحّدوا ثوراتهم في الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش، مما أدى لاحقاً إلى نيل الاستقلال، وقم تم جلاء آخر جندي فرنسي عن سورية يوم 17 نيسان (أبريل) من عام 1947 والذي يحتفل فيه في كل عام كعيد وطني هو عيد الجلاء.

أما اليوم فيحتفظ القطر العربي السوري بما يزيد عن (3256) أثر مسجل على قائمة التراث الوطني وأكثر من (10) آلاف أثر معين ينتظر التسجيل، وبالمقابل تمتلك سورية قائمة تمهيدية معتمدة من قبل اليونسكو منذ عام 1999 بها خمسة عشر موقع أثري مرشح للتسجيل على قائمة التراث العالمي التي تمتلك سورية بها فعلاً خمسة مواقع رئيسية مسجلة وهي مدينة دمشق القديمة وحلب القديمة ومدينة بصرى[1]

(1) بصرى : (بوسترا اللاتينية، بوسورا اليونانية) : تسمى أيضاً بصرى الشام. هي مدينة أثرية تقع في جنوب سورية، على بعد 108 كم إلى الجنوب من دمشق. أنشأت المدينة من قبل الأنباط، احتلها الرومان وأصبحت عاصمة مقاطعة الجزيرة العربية في الإمبراطورية الرومانية، وكانت حصناً رومانياً منيعاً في منطقة شرق الأردن. ازدهرت المدينة في حكم الإمبراطور فيليب الأول (فيليب العربي) المولود في بصرى. أصبحت مركزاً مسيحياً هاماً في القرن الرابع للميلاد، ويقال إن النبي محمدﷺ مر فيها خلال أسفاره التجارية بين مكة والشام، حيث تنبأ راهب مسيحي يدعى بحيرا بنبوته. احتل العرب المسلمون بصرى عام 634، وسقطت بيد الصليبيين لفترة قصيرة في القرن الثاني عشر. شهدت المدينة تراجعاً كبيراً بعد ذلك بعد أن تعرضت لعدد من الزلازل وبعد أن خضعت لسيطرة الأتراك العثمانيين. أهم آثار المدينة مدرج بصرى المسرحي الروماني، حيث يقام مهرجان فني سنوي. كما تضم المدينة كنائس ومعابد ومسارح ومساجد وكاتدرائية كبيرة تعود إلى القرن 7هـ/13م.

ومدينة تدمر[1] وأخيراً قلعتي الحصن وصلاح الدين[2] الذي نجحت سورية بتسجيلهما على القائمة العالمية باسم قلاع الساحل السوري في اجتماع لتوانيا عام 2006، وكل ذلك يؤكد تلك الأهمية الاستثنائية للمواقع الأثرية السورية وضرورة تقديم الدراسات العلمية الكفيلة بإظهارها وإعادة تأهيلها بما يكفل تقديم الصورة الحضارية الأمثل وليصبح لهذه المعالم الأثرية دوراً فاعلاً في عملية بناء المستقبل.

(1) تدمر (بالميرا) : مدينة أثرية في وسط سورية، وواحة في شمال غرب بادية الشام، على بعد 240 كم شمال شرق دمشق. أنشأت تدمر في البداية كمحطة للقوافل في القرن الأول قبل الميلاد، ثم تحولت إلى موقع روماني ثم مركز مقاطعة في الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادي. ازدهرت تدمر في عهد الملك أذينة (أوديناثوس) الذي كان موالياً للرومان واستعاد الأراضي التي فقدتها الإمبراطورية من الفرس. بعد اغتيال أذينة، تولت زوجته زنوبيا الحكم. كانت زنوبيا تطمح إلى توسيع نفوذ مملكة تدمر إلى آسيا الصغرى ومصر، إلا أن طموحاتها انتهت في حربها مع الإمبراطور الروماني أورليان، الذي احتل تدمر عام 272 م ودمرها، وساق زنوبيا أسيرة إلى روما. من أهم الآثار الباقية في المدينة اليوم معبد الشمس (بعل) والشارع الرئيسي الذي يبلغ طوله 1,6 كم، والقلعة العربية.

(2) انظر الدراسة الخاصة بهاتين القلعتين بهذا الكتاب.